

جماعة الديوان * وحركة التجديد الشعري في العصر الحديث

د/عمر محمد العالم

جماعة الديوان التي ظهرت في مصر وشغلت الناس في الأدب والنقد والفكر بعامة أوائل القرن العشرين وحتى بدايات النصف الثاني منه بأقطابها الثلاثة : عبد الرحمن شكري وعباس العقاد وإبراهيم المازني ، اتخذت هذه الجماعة موقفا عدائيا من صورة الأدب والشعر الرائجة زمن ظهورهم من الوقوف بباب الحاكم ، والدعوة له وتبجيله ومن ثم السعي بكل الطرق للحصول على الحظوة عنده ، وكان جماعة الديوان ينظرون إلى هؤلاء من المتملقين والساعين إلى الحصول على الحظوة عند الولاة ومن بأيديهم العطاء، ينظرون إليهم نظرة ازدراء وكره شديدين لما يظهرونه من تملق وزلفي واستجداء بل وبيع للقيم والمبادئ النبيلة في إضفاء كل صفة نبيلة وعالية على من لا يستحق، والحط من رسالة الشعر السامية والشاعر الذي ينبغي أن لا ينزل إلى هذه التوافه .

والعقاد وهو أكثر جماعته نقدا لهذه الفئة من الشعراء : " كان يتحرز كثيرا إذا ما كتب شوقي - وهو شاعر القصر ولسان حال السلطة - قصيدة رثاء في زعيم وطني يدين له الشعب المصري بالكثير من آيات النضال الثوري، يتحرز العقاد لاقتناعه شبه المطلق بأن هذا الشاعر الملكي غير المصري لا يمكن أن تطابق مشاعره أحاسيس المصريين إزاء فقد أحد زعمائهم الوطنيين ، هذا الشك يقود العقاد إلى تلمس مدى الصدق الذي تتطوي عليه القصيدة في الترحم على محمد فريد وبكائه ، والصدق هو همزة الوصل بين الشخصية الإنسانية للشاعر وشخصيته الفنية فإذا كان الجانب الإنساني مشكوكا فيه وجب الالتفات اليقظ إلى الجانب الفني ، والمعايير الفنية الرفيعة تكشف لنا

مدى الصدق الذي يعتمل وجدان الشاعر أو الزيف الذي يغلف كلماته¹ .
والقضية الثانية التي أثارها قصيدة شوقي في رثاء مصطفى كامل عند العقاد هي : " قضية الإحالة التي يوجزها في فساد المعنى بالتعسف والشطط ومخالفة الحقائق والخروج بالفكر عن المعقول والمحاسبة العسيرة التي تعرضت لها القصيدة في هذا

الجزء من نقد العقاد هي : " الحساسية العقلية " كامتداد لمفهوم الوحدة العضوية في الشعر فالناقد هنا يمتدح : " الصورة الشعرية " بنفس الأسلوب الذي يمتدح " المعنى " والفكرة " وفي رأيي أن العقاد بلغ ذروة التطرف في " عقلنته " فن الشعر حين افترض إمكانية أن تتبلور الصورة الشعرية في منظورات حسية " مفهوم " ومدلولات فكرية " معقولة² .

هذه هي رؤية العقاد لشعر المحافظين جملة وأبرزهم أحمد شوقي كما يقرر أحد النقاد البارزين د . غالي شكري .

والعقاد رغم أنه كان يطلق العنان لقلمه بحرية وجرأة في النيل ممن يظهر على الساحة الفكرية والأدبية في زمنه ، فإنه في المقابل لا يقبل من أحد أن يضعه تحت المشرحة ليعمل به مثل ما يعمل هو بغيره : "هناك معشر يحدرون على النقاد ، كما فعل العقاد حرد وسخط لأن سيد قطب قال في قلبه الشعري قاس وجمع بينه وبين أبي شادي في مقال حين نقد أو قرظ ديوانيهما: الينبوع وهدية الكروان العقاد ، كما صرح سيد قطب يكره أن تتعقد في أذهان

*هم عبد الرحمن محمد شكري عياد :1304-1378هـ 1886-1957م مصري من

دعاة التجديد في الأدب .

عباس محمود العقاد:1306-1383هـ 1889-1964م إمام في الأدب "مصري ، من

المكثرين كتابة وتصنيفاً من الإبداع.

إبراهيم عبد القادر المازني : 1305-1368هـ 1949-1980م مصري أديب مجدد

من كبار الكتاب .

2 - شعراء ما بعد الديوان أبو همام عبد اللطيف عبد الحليم ، دار الفكر العربي

1419هـ 1999م ص 66

الناس صلة بين فنة وفن أبي شادي ولو في الأسماء بل هو يستتكف وبأنف من مثل هذه الصلة ..

أرأيت الآن أيها القاري ارسنقراطية زعماء الأدب في مصر ؟ أصدقت أن فيهم المنبوزين والأنجاس كما في الهند فالى الصوم أيها العابدون غفر الله لظه حسين ، فمن جهتين لا جهة أساء ، فقد صمم وتحمم مكاييل التناء للعقاد ونصره على شوقي ، كان شعاره: أنصر أخاك ظالما كان أو مظلوما ، وهو لو عدل لاتأد في نقد شوقي ووقف منه موقف النصيح لا المندد ، ولكن كما قال طه : حب الشهرة عدو الفن والمرء مؤاخذ بإقراره (3).

وقد كان العقاد في زمنه ناقدًا صارمًا في وجه كل من يخالفه ويرى في الأدب رؤيا تغاير رؤياه : وكانت مفاهيم العقاد الأدبية تتناقض كيفيا مع مفاهيم الاتجاه الكلاسيكي في الأدب مهما بالغ في استخدام موازين النقد العروضي واللغوي وتحليل شعر شوقي ، فقد كان هذا الاستخدام بمثابة التعريض فكل ما يفاخر به شوقي وعشاقه ويزهون به كان بمثابة التحدي السافر ، لأنه " تحفظات " يمكن لقارئ الشعر الكلاسيكي أن يصون بها شاعره التقليدي من سهام الناقد الحديث ، أي أن العقاد أراد أن يستخدم : " نفس السلاح " الذي قد يتعرض بواسطته لتحديات الخصم (4) ولم يكن هناك في مصر من يجرؤ على نقد العقاد إلا بالتناء على المذهب الشعري الجديد والإشادة بالعبقرية العقادية غير ناقد واحد كان بعيدا عن العقاد وعن مصر كان هناك في الشام لبنان ، ذلك الناقد الذي آمن بالكلمة وسخر حياته لها ، ولا يهمه ماذا يمكن أن تجلبه له مواقفه الصلبة تلك في إظهار حقيقة ما يتداول في سوق الأدب تلك الأيام خاصة عند من يتربعون على كراسي بضاعة الأدب والنقد ، إنه مارون عبود الناقد الذي تتبع العقاد في نتاجه الشعري وغير الشعري وقال فيه ما لا يرضي العقاد ولا المطبلين له .

3 - الشعر المصري بعد شوقي د. محمد مندور، الحلقة الثانية ، نهضة مصر لا ط

د.ت ، ص40

4 - نفسه ص 41

ومدرسة الديوان ، وأعني منها العقاد والمازني : قد صدرت في مستهل حياتهما عن ثورة عارمة لا ضد الأدب التقليدي وممثليه فحسب بل ضد الحياة ذاتها وظروف تلك الحياة التي برموا بها وتمردوا عليها " (5) ومهما يكن فإن ظهور جماعة في الأدب في تلك الفترة الزمنية التي ظهرت فيها جماعة الديوان تدعو إلى ما كانت تدعو إليه وهو محاولة غريبة النتاج الشعر وتقييم النتاج الظاهر آنذاك وتوجيه الأدباء إلى منح الفرد مكانته والمناداة بإعطائه حقوقه المفقودة والتي اغتصبت وانتهيت من قبل الساسة ومن بيدهم الحل والربط ، وفي نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين بدأت تلوح في الأفق في العالم كله بشائر التحرر والانعتاق من العبودية على أيدي جماعات منتورة بالعلم والثقافة هنا وهناك في الغرب أولا ثم سرى ذلك الأمر في بعض أماكن في الشرق في الشام ، سوريا ولبنان وفي الكنانة في مصر . ويبدو أن : " أصحاب مدرسة الديوان لم يختطو لهم الطريق الواضح ليسيروا فيه ، ولم يقدموا لهم النماذج المكتملة لشعر جديد ، وقد اعترف اثنان من ممثلي المدرسة بفشلهم "6. وتلاشي الديوان كانوا من القراء النهمين الشريين على القراءة والاطلاع عبر لغة الأصل والانتماء العربية ولغة التعلم والعصرنة الانجليزية .

والحق أن : " من يتملى كلام شكري في فائدة القراءة وأثرها في تزويد الشعر بالمعاني وإثارة الخيال يدرك أن شكري ممن يؤثر المعنى على اللفظ والصياغة وكان هذا طابع مدرسته وجرى على سنته زميلاه ، وقد أضر هذا بشعرهم ، لأن المعاني في الشعر لا تقصد لذاتها ، ولكنها تقصد حين تلبس ثوب الفن الرفيع مصحوبة بالموسيقى الشعرية الخلابية ، فإذا اكتفى الشاعر بالمعنى ولم يعط أركان الشعر الأخرى حقها هبط شعره إلى مستوى النثر "

5 - التطور والتجديد في الشعر المصري الحديث عبد المحسن طه ديدر دار العلم للملايين لا ط دت ص 11 .

6 - ثقافة الناقد الأدبي د/ محمد النويهي دار الثقافة الدار البيضاء لا ط ، د ت ص

(7). وربما كان للفترة التي ظهرت فيها جماعة الديوان على الساحة النقدية والأدبية بهذه الصورة حيث أنه لم يظهر أحد ربما كان لها دور في عدم وجود من ينظر إلى كلامهم ونقدهم ذلك نظرة تمحيص وغربة بل على العكس تماما حتى : " بلغت بنا الحال إلى اعتمادنا عليهم وأن نجاريهم في أغلب آرائهم صحيحة أو خاطئة ناضجة أو نية ، فكثير من أقوالهم يحتاج إلى تمحيص لم يستطيعوا أن يقوموا به ، وإنتاجهم به النقص الضروري الذي لا بد أن يوحد في عمل الذي يبين طريقا جديدة ويبتكر مذهباً لا عهد لنا به ، وجزء عظيم من عملهم مقالات صحفية رائجة لم يتمكنوا فيها من استيفاء البحث واستكمال الدراسة ونحن مع هذا كله نقبل معظم ما قالوا عن العصور والشعراء والناثرين مما سبب هذه الحالة السيئة المحزنة" (8) .

هذا كلام منطقي جدا كان ينبغي أن يضعه المندفعون وراء جماعة الديوان نصب أعينهم ، فقد أظهر الزمن الآن ونحن في بدايات القرن الواحد والعشرين خطأ بعض ما يرونه ويذهبون إليه بل ويقررونه ويردون سواء وإذا كنا لم نر في عصرهم نقدا لهم إلا بالتمجيد والثناء عليهم فإن هذه الصورة لم تدم لهم ولا تدوم لأحد سواهم ، فقد سمح أحد الأدباء النقاد لنفسه بأن يقول فيهم ما لا يتجرأ أحد على أن يقوله في حياتهم ، يقول هذا الناقد : " إن جماعة الديوان كانوا يعيشون في فوضى خلقية حسب اعترافهم ، وتظهر هذه الفوضى الخلقية بصورة أكثر وضوحا في كتاب العقاد : " مجمع الأحياء " والكتاب . يقوم على فكرتين رئيسيتين هما :

- أ- أنه يدعو كل إنسان إلى التصرف حسب طبيعته دون قسر .
 - ب- يدعونا إلى الاعتقاد بأن الأخلاق لا حقيقه لها في الواقع " 9 .
- وإذا كان لنا أن ننظر نظرة نقدية إلى جماعة الديوان هذه فإننا والكلام لمندور سنرى أن " المازني قد كان أكثر رقة وشاعريه برموزه وصورة الشعرية

7 - نفسه ص 96

8 - ثقافة الناقد الأدبي 35

9 - خصام ونقد د طه حسين دار العلم للملايين الطبعة الخامسة 1962 م ص 17.

المفرزة فيما تكبر العقاد وزمجر العملاق ليسمعنا هذا التجديف وأمثاله في لغته العقلية الجافة الغامضة "ولقد تعددت رؤى الكتاب أدباء ونقاد لجماعة الديوان بعد رحيلهم واختلفت وتنوعت نظرتهم بل اشتط بعضها في سوء النظرة والحكم حتى أجاز لنفسه بأن يقول : " أصحاب مدرسة الديوان لم تقتصر ثورتهم على الحياة وحدها ، ولكنهم تمردوا على الله نفسه باعتباره مسؤولاً عنها ويظهر هذا التمرد عند شكري والعقاد واضحا " (10) ان ما كان يأمله جماعة الديوان لم يتحقق منه شيء بل حدث العكس تماما ، فقد نشبت الخلافات بين الجماعة نفسها فيما بينهم وأصابهم التشاؤم ، ولعل عبد الرحمن شكري وهو المقدم فيهم لعله أصابه مالم يصب أحدا غيره من جماعته فقد هجر الكتابة لإلافي النادر وأصابه قدر كبير من التشاؤم في انقلاب الصداقة مع المازني الى عداوة مرة ، وأعلن ذلك الأديب والناقد الألمعي : " ثورته على الأصول الاجتماعية ، حيث لم يقدره مواطنوه حق تقديره ، ولم ينزل المنزلة التي يستحق ونلقى حالة مشابهة له عند ابن الرومي الذي أعلن السخط على متناقضات عصره منذ قرون مبكرة ، وتمرد على مجتمع لا ينصف شاعرا متميزا مثله وأنكر عليه إهدار حق أصحاب الفضل فيه وهضم الطبقة الموسرة لحقوق المحرومين فراح يصرخ في مجتمعه ينشر العدل والمساواة :

أتراني دون الأولي بلغوال آمال من شرطة ومن كتّاب
وتجار مثل البهائم فازوا بالمني في النفوس والأحباب
خير ما فيهم ولا خير فيهم أنهم غيروا أثمي لمغتّاب

هذه هي الحالة التي آلت اليها نفس عبد الرحمن شكري . (11) بل ما نال فؤاده كان أكثر آلاما وأشد نزيفا وكل ذاك كان من ابراهيم المازني وما أذاعه في من حوله حول شكري وما قاله فيه من أحاديث مغرضة يندي لها الجبين من ذلك قول المازني في أستاذه : " وأنت أيها القاري قد تعلم أن سر النجاح

10 - أهم مبادئ العقاد النقدية بين النظرية والتطبيق نهضة مصر ص76
11 - الشعر المصري بعد شوقي د/ محمد مندور الحلقة الثانية نهضة مصر لا ط ،
دت ص 40.

في الأدب هو علم اللسان وحسن البلاغ وقوة الأداء ، وأن على من يريد أن يشرح ديناً جديداً لأطفال هذا العالم أن يحثهم بما أحببت أسلافهم في سالف الزمن أو بما يبدهم أن يحبوه لو عرفوا وأنه كان يغريهم بما ينبغي له أن يتوخى القوة في العبارة عما يريد ، فإن الناس خليفون ألا يؤمنوا إلا بمن عمر صدره الإيمان " والعقاد هو الآخر ناله ما نال صاحبه المازني من الاضطراب وعدم الثبات ، بل والتغير والشطط في الأحكام ، فإذا ما كان المازني أظهر جام غضبه وما كان يضره من حقد وسخرية وهزه لرائد جماعته والمقدم فيها شكري : " فإن الدارس يشعر بقلق بالغ حين يلاحظ أن العقاد لم يمض في خط مستقيم مع أدواته التقليدية التي تعرفنا عليها فيما سبق وإنما نراه يستقطب أكثر الجوانب سلبياً في هذه الأدوات ليحاول النيل من أكثر الجوانب ايجابية في شعر الكلاسيكية المصرية " . (12)

وليس هذا فقط ما يعيب العقاد فإنه قد فرض نفسه على الشعر مع هذه الروح المترفعة العالية ، والعقاد بحق : " غير محروم من روح الشعر ، ولامن نبض الحياة ولكنه اصطنع راضياً أو كارهياً لنفسه شخصية عملاقة متجبرة أرادت أن تصرع الشعر وأن تصرع الحياة ولكن هيهات ان العقاد لم يقل شعراً إلا عندما هزته روح الشعر وسيطرت عليه ، وأما عندما يتعالى العملاق ويصول ويجول فإن الشعر يولي الفرار " (13) .

وكان غير بعيد من هذه الجماعة جماعة الديوان من كان يسمع ويقراً هذه الأحاديث والقضايا التي تنيرها الجماعة وهو فاهم مستوعب لما يثيرون ويقراً ما يسطرون يفهمه كما يفهم نفوسهم ولم ترضه هذه الزوبعة التي يصنعها هؤلاء ، لأنها لم تكن تحدث وفق ما يقتضي الأمر منهم أن يكون فوجه كلام لهم ناصحاً / قال : " فليرح هؤلاء السادة أنفسهم وليوجهوا جهودهم الى ما ينفع

12 - شعراء ما بعد الديوان ، ابو همام عبد اللطيف عبد الحليم دار الفكر العربي 1419 هـ - 1999م ص66 .

13 - في الأدب الحديث د/ عمر الدسوقي الكتاب العربي ببيروت لبنان ، الطبعة السابعة ص45 .

الناس ويجدي عليهم . وإلى ما يغني هذا الأدب الجديد ويضيف إليه ثراء جديدا وينقلوا الخصومة من الأدب نفسه إلى صورة الأدب ، فما عسى أن يكون الأدب الذي يريدون أن ينشأ في حياتنا الجديدة ، وأن يوجه إلى لهجات الأحاديث التي تجري في الشوارع والقهوات والأندية ، أم يريدون أن يكون الأدب كما عرفته الإنسانية دائما فنا جميلا يساق الى الناس في ثوب جميل " (14) .

وجماعة الديوان هذه كانت قد أوجدت لها كيانا في أدبنا الحديث والمعاصر في الوطن العربي كله له حضوره ومساحته في الأدب والنقد الحديثين ويرجع لهما الفضل في تغذية الأدب والنقد بكل جديد ومفيد مما تزخر به الآداب العالمية من أشكال وألوان وصور وشخصيات تعبر عن الحياة الحاضرة بدل الصورة الواحدة والشكل الثابت الذي يرجع إلى عصور كان قد عاشها غيرنا وعبروا عنها وهي تصورهم فهي خاصة بهم وإن كنا في حاجة ماسة في عصرنا هذا للارتواء من ينابيعها والنهل منها لتكوين الذات والانتماء والحفاظ على الأصالة في مسيرتنا ومستقبلنا يقول الدكتور محمد مندور في كلام عن الديوان والديوانيين : " والشيء المؤكد هو أن حركة الديوان لم تخلق مدرسة شعرية ، ولم تترت تلاميذ وأتباعا ، وذلك لأن المازني لم يلبث أن هجر الشعر الى النثر ، والتهاب العاطفة إلى السخرية ، حتى احتل بأسلوبه الخفيف الساخر وبفلسفته الضاحكة من الحياة المستخفة منها مكانا فريدا من بين التأثيرين في الأدب المصري المعاصر ، وإذا كان الأستاذ العقاد لم يهجر الشعر بل واصل إخراج الدواوين حتى : " أعاصير مغرب " ثم " بعد الأعاصير سنة 1950م فإن هذا الأستاذ الكبير لم يواته فيما يبدو الطبع الذي يستطيع من أن يكون مدرسة وأن يتبنى تلاميذا لهم موهبتهم وشخصياتهم الأصيلة " (15) . والمازني بحق هو صاحب أسلوب متميز بالسخرية مما حوله ومن بعض من هم حوله ممن يخالفونه الرأي والمذهب والاتجاه وقد

14 - ثقافة الناقد الأدبي ص 76.

15 - الشعر المصري بعد شوقي ص 98.

أصيب في حياته بما جعله في صورة تدعو للتندر والتفكه من بعض الحاضرين ممن يبحث عن مثل هذه الأمور حصل له ذلك من أثر سقطة تعرض لها في حياته عندما كان في سن صغيرة أصابه بعرج ملازم دائم . وكان من القراء الشريهين النهمين إلى القراءة وكان مشهورا بين المخالطين له بأنه مستوعب لما يقرأ : " وقد تارث شكوك حول تأثر المازني بغيره من الشعراء عربا وأجانب ولم نستطع ولا غيرنا يستطيع أن يعترف للمازني بالسرقة قولاً واحدا لتعدد المصادر وحالته الخاصة (16) 12 .

لقد شغلت هذه الجماعة الفكر والأدب في بلادنا العربية وأنارت شعلة وأيقظت الأذهان إلى البحث عن كل جديد ومفيد لبلادنا وأمتنا وحاضرنا حتى نواكب ركب الحضارة والتطور والتقدم وهنا أجد أنه من الواجب القول : " أن مما تجدر الإشارة إليه أن كتاب " الديوان " في جوهر ما احتواه ، يعد نتيجة منطقية للتفاعل المعولم سلفا من النقاء الثقافتين العربية والغربية في أن فقد أنطلق الديوانيون متعمقين في الأدب الانجليزي وقد تأصلت عندهم قبل ذلك العربية أدبا وثقافة ، هذا الالتقاء كان مبعث التجديد في الأدب العربي الحديث عامة ، كما أن النقاء الثقافات بمراجعة تاريخ التطور الفكري والثقافي لأكثر الأمم عادة ما يكون أداة التجديد والتطوير في كل عصر من العصور ، وأخيرا فإن القضايا النقدية التي عالجهما العقاد والمازني في الديوان خاصة كانت الشرار الأول لتلك الثورة الادبية في العصر الحديث .12